ملحق
يصدر شهرياً هدية
דפוס מ. סוכובולסקי, חיפה

الاتحاد

نيسان
١٩٥٠

من أدب حركة المقاومة الشعبية في القسم الاخر من فلسطين

نقدم الى القارىء ، في هدية الاتحاد لهذا الشهر ، مراجعة للمجلة الأدبية الشهرية السرية التي تصدرها عصبة التحرر الوطني في القسم الآخر من فلسطين . اسم هذه المجلة هو «صوت الطليعة» . وهي تطبع على « السنانسل » وبخط اليد ايضاً . ان وسائل الطباعة الحديثة هي في متناول المستعمر البريطاني واجيره عبد الله ، ولكن قلوب الشعب هي مع قادة الحرية المدافعين عن الشرف القومي . ان اعداد هذه المجلة الادبية المتواضعة تنتقل من يد الى يد في القسم الآخر من فلسطين على الرغم من كل بوليس ابو حنيك وسجونه المفتحة . انها « الشرارة » كما قال لينين العظيم «ومن الشرارة سيندلع اللهيب» .

وسنقدم الان من هذه المجلة قطعتان . الاولى هي افتتاحية العدد الاول منها الذي صدر في كانون الثاني الماضي ، وهذه الافتتاحية ، بالاضافة الى انها تحفة ادبية رائعة ، تعبر عن اهداف المجلة وعن الروح النضالية العالية التي توجه الاقلام التي تحررها . والثانية هي قصة انسانية واقعية لخصتها مجلة «صوت الطليعة» من كتاب «تحت حبال المشانق» الذي كتبه في اقبية الغستابو الهتلري رجل من حملة لواء الفكر والثقافة والنضال التحرري في تشكوسلوفاكيا قبل الحرب ، وبطل من ابطال المقاومة السرية ضد الاحتلال النازي ، وشهيد من الوف الشهداء الذين قضوا في سبيل تحرير اوطانهم وتحرير الانسانية من لعنة الفاشيستية على اختلاف اشكالها ومصادرها ، هو : يوليوس فوتشيك . ان اختيار مجلة «صوت الطليعة» لهذا الكتاب هو اختيار عميق المعاني ، فان نضال رفاقنا في القسم الآخر ضد الاحتلال الانجلو - هاشمي يشبه كثيراً نضال حركة المقاومة السرية في اوروبا اثناء الحرب العالمية الثانية ضد المحتلين الفاشست . ونضال رفاقنا في القسم الآخر سيتطور ايضاً كما تطور النضال في تشكوسلوفاكيا وغيرها : الى النصـــر ...

● ● ●

افتتاحية العدد الاول من «صوت الطليعة»

الشعب العارية اجسامه المريض الجائع أقوى من العلوج بدباباتهم وسجونهم .

اخي ايها القارىء .

هذا هو العدد الاول من مجلتنا «صوت الطليعة» نصدره بهذا الشكل البسيط ونحن على يقين من أن هذا الشكل سوف لا يثير استغرابك على الرغم من أن العالم يعيش اليوم في عصر تطورت فيه الطباعة الى مدى بعيد ، لانك تعلم ايها القارىء اننا الى جانب تطور العلم والصناعة ما نزال نعيش في ظل الهمجية الاستعمارية ، هذه الهمجية التى تحاول تكسير اقلام الاحرار وتضطهد الفكر الانسانى فى كل مكان - وهي تسخر العلم والصناعة وكل شيء لمحاربة العلم التقدمي ، ولاستغلال بني الانسان ومنعهم من تحطيم قيودهم ليتمكنوا من جعل العلم والصناعة وكل ما فى هذا الكون فى خدمة الانسانية ووسيلة من وسائل تقدمها .

ونحن هنا في هذا البلد الصغير نبلو اليوم ظلم الاستعماريين واضطهادهم ، ونبلو ظلم خدمهم واعوانهم ، ولكن هل كان علينا أن نخضع ونستسلم او نتراجع ؟ كلا ايها الاخ الكريم ، ليس هذا من صفاتنا ، انما نحن شيوعيون واثقون تمام الثقة من أن الاستعمار وخدمه من الرجعية في كل مكان ، على الرغم من حديدهم ونارهم وسياطهم وسجونهم وحبال مشانقهم ، لأعجز من أن يقفوا امام مئات الملايين من الشعوب المضطهدة التى سارت منذ أمد طويل في طريق التحرر والانعتاق .

أن المستعمرين اليوم يرتعدون فرقاً لأن الشعوب فى كل مكان قد صممت على قبر الاستعماريين والتخلص منهم الى الابد . نحن شعب صغير ولا شك ، ولكنه لا يسير وحده في هذه المعركة الفاصلة ، اننا نسير جنباً الى جنب مع مئات الملايين من الشعوب المنتظمة في المعسكر الدمقراطي والمعادي للاستعمار وطليعته الاتحاد السوفياتي حصن الحرية والسلم . اننا نسير تحت لواءه من اجل الحرية والسلم لجميع شعوب العالم . هذا الشعار الذي تنضوي تحته مئات ومئات الملايين من الصين الكبيرة الى ألبانيا الصغيرة ، فى الشرق والغرب . فى اوروبا واميركا . لم يسبق فى التاريخ أن احتشد هذا العدد الضخم من مئات الملايين من الناس بهذا الشكل المنظم الجبار في معسكر الحرية واسلم ضد المستعمرين وكلابهم في كل مكان ، ولم يسبق في التاريخ أن كان للانسانية قيادة حكيمة عبقرية كما لها اليوم بقيادة الاتحاد السوفياتي حصن الحرية والسلم العالمي .

إن قضية النضال في فلسطين الصغيرة من اجل التحرر والسلم هي اليوم قضية شعوب العالم باسرها . نحن واثقون كل الثقة بأن المستقبل للشعوب وليس لجلاديها المجرمين الاستعماريين واعوانهم الرجعيين ؛ إننا واثقون بأن شعبنا الصغير هذا سيخرج من بين الخرائب والدمار ، ويهب من بين الدماء والدموع ليحرر نفسه وليطرد المحتلين الغزاة خدم ألاستعمار الانكلو - اميركي ، ويبني حياته الجديدة اللائقة به كشعب محب للحرية والسلم .

بالامس تألب الاستعماريون الانجليز وكلابهم من العرب واليهود ودمروا هذا البلد الصغير وداسوا على قلوب بنيه وولغوا في دماء مواطنيه الزكية ، وخربوا كل ما بناه الشعب العربي في فلسطين ، وشردوا ما ينوف على ثلاثة ارباع المليون عربي . ولكن هل انتهت المسألة ؟ هل اصبح اولئك المجرمون فى أمن واطمئنان ؟ كلا يا أخي ثم كلا . إنهم في حصونهم وقلاعهم ، وهم في كراسي الحكم ، وتحت امرتهم الاساطيل الجوية والبحرية ، وبأيديهم السياط ومفاتيح السجون ، وتحت تصرفهم كل وسائل الدعاية والنشر من اذاعات وصحف وكتب وحتى الكنائس والمساجد ؛ إنهم ، وعندهم كل ذلك ترتعد فرائصهم من الشعب الأعزل ، هذا الشعب الذى يعيش في الكهوف والمغاور وفي الخيام الممزقة بأجسامه النحيلة العارية الجائعة المريضة . إن هذا الشعب يقض مضاجعهم ويثير غضبهم حتى الجنون ؛ والا فلم هذه السجون والمنافي وهذه السياط بأيدي جندهم يلهبون بها ظهور الفلاح والعامل ؟ والا علام تخيفهم هذه النشرات الصغيرة التى يصدرها الشيوعيون فيعربدون وتثور ثائرتهم عندما يجدونها ملقاة في الشارع او ملصقة على الجدران ويصبح بوليسهم كالمحموم يعتقل ابناء الشعب ويزجهم فى السجون وينكل بهم لأنه وجد في جيوبهم نشرة صغيرة .

أرأيت يا اخي . أن الشعب العارية اجسامه ، الشاحبة وجوهه ، المريض الجائع الأعزل ، هو اقوى من اولئك العلوج بدباباتهم وطائراتهم وجيوشهم وسجونهم !

هكذا كان الأمر فى روسيا القيصرية قبل اكثر من ثلاثين عاماً ، وهكذا كان الأمر في الصين قبل بضعة أعوام ، وهكذا هو اليوم في فرنسا وايطاليا في الغرب ؛ وفي برما والملايو وفيتنام واندونيسيا فى الشرق ، وهكذا هو هنا ايضاً في فلسطين الصغيرة ، وفى مصر والعراق وسوريا ، وفى كل مكان يسيطر عليه المستعمرون وأعوانهم . أن الوحش الاستعماري يحس بالبركان ينفجر من فوق رأسه ومن تحت اقدامه ، لا يدري ما يصنع ولا أين يذهب ، فالعالم كله اليوم صين جديدة . إن هذا الوحش الاستعماري المثخن بالجراح فى اهتياج ، انه في مرحلة النزع الاخيرة ، ولهذا نراه يصخب ويصيح هائجاً ضارياً يريد أن يخرب كل ما هو جميل وكل ما هو شريف في هذا العالم . انه يحضر لحرب عالمية جديدة كآخر وسيلة له قبل أن ينفق . ولكن قبضات الشعوب التى تبلغ مئات الملايين ، تلك القبضات الفولاذية الجبارة المضمومة الى بعضها البعض تنقض على رأسه ولن تتركه حتى يذهب الى غير رجعة .

أن الشعوب المناضلة اقوى من المستعمرين الوحوش . فالحق والقوة معاً اصبحا في جانب الشعوب ، لقد تقرر هذا عام ١٩١٧ فى ثورة اكتوبر الكبرى . ان الاتحاد السوفياتي العظيم القوي الجبار يقف فى طليعة هذه المئات من الملايين من الشعوب التى تمتلك الحق . ان الحق والقوة الى جانب شعبنا ايضاً ، ولذا فلن يستطيع المستعمرون وخدمهم وكلابهم أن يمنعوا شعبنا من التحرر والانعتاق .

هذا هو « صوت الطليعة » ، وهو ان بدا اليوم صغيراً . فانه سيكبر ويرتفع صوت جماهير شعبنا التى تشق طريقها نحو النور ، نحو التحرر والانعتاق . إنه صوت جماهيرنا المكادحة الواعية التي تسير جنباً الى جنب مع مئات الملايين من الشعوب المنتظمة فى المعسكر الدمقراطي والمعادى للاستعمار وطليعته الاتحاد السوفياتي العظيم حصن الحرية والسلم .

أن صوتنا الآن صغير ولكنه سيرتفع وسيرتفع عالياً ، لأنه صوت الجماهير الكادحة ، صوت الحرية ، صوت المناضلين من أجل السلم .

كلنا ثقة بأن شعبنا سينتصر وسيخرج من تحت الانقاض ومن وسط الكارثة ليبني مجتمعه الجديد .

أن شعبنا مع مئات الملايين من الشعوب بقيادة الاتحاد السوفياتي العظيم أقوى واشد من المستعمرين المجرمين الوحوش .

النصر للشعوب المناضلة وفى طليعتها الاتحاد السوفياتى العظيم .

والهزيمة الساحقة للمستعمرين واعوانهم .

يوليوس

«تحت حبا

من روائع أدب

أديب وكاتب وناقد ومناضل ديمقراطي

ولد يوليوس فوتشيك في ٢٣ شباط ١٩٠٣ في براغ، وكان صحفياً ومؤلفاً وناقـدا أديباً وقـائدا من قادة النضال الدمقراطي. وكان أبوه عاملا في مصانع الفولاذ.

بدأ فوتشيك نشاطه في حركة الطبقة العـاملة وفي الحقـل الثقافي في تشيكوسلوفاكيا في النصف الاول من العقد الثاني من عمره، وقد درس الادب والموسيقى والفن في جامعة براغ. واشتغل عاملا بسيطاً يكسب قوته اليومي بعرق جبينه. انضم الى الحزب الشيوعي. وكتب في عدة مجلات اشتراكية واصبح قائدا بارزا، منذ حداثته، في منظمة الطلاب الشيوعية، وفي عام ١٩٢٩ أصبح المحرر المسؤول لجريدة «تفوربا» التي أصبحت بقيادته الصحيحة، مجلة سياسية وثقافية واسعة النفوذ. واصبح بعدها محرر جريدة «رودي برافو» لسان حال الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي.

ولفوتشك مؤلفات كثيرة في الادب والسياسة، ما عدا مقالاته الكثيرة وريبورتاجاته في الصحف والمجلات.

زار الاتحاد السوفياتي مرتين ونقل مشاهداته الى مواطنيه كمراسل ومحاضر ومحرر. وملأت نفسه بدائع النظام الاشتراكي الجديد ومدهشاته. ومن اروع ما انتجه قلمه كتابه عن الاتحاد السوفياتي الذي عنوانه «حيث اصبح الغد امسا».

لقد قتل الطغاة فوتشيك الا ان المستقبل الذي ناضل في سبيله قد اصبح حقيقة واقعة في وطنه تشيكوسلوفاكيا. وفي كثير من جاراتها الاوروبية.

النضال السري

ثم كانت مؤامرة ميونيخ، فاحتلت المانيا تشيكوسلوفاكيا، فاضطر الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الى أن يتابع نشاطه سرا، واضطر فوتشيك الى الاختفاء والانصراف الى القيام بدراسات ماركسية، والى تقوية وتوجيه التنظيم السري للحزب، وايجاد مكان سري للجنة المركزية. وقد استطاع، بمساعدة بعض الرفاق ان ينشر الجريدة السرية للحزب «رودي برافو» ونشرات أخرى.

وقد القى الغستابو القبض عليه في ربيع سنة ١٩٤٢ وأمعنوا فيه تعذيباً وتنكيلا ليدلي بمعلوماته عن منظمات الحزب السرية، ولكنه كان جبارا في بطولته، رائعاً في ثباته، فلم يستطع الغستابو أن ينال منه كلمة واحدة. واشرف فوتشيك مرارا على الهلاك، من هول التعذيب ووحشيته. ولكنه بقي حيا كأنما يتحدى حتى الموت.

ولما لم ينالوا منه كلمة واحدة لفظوا حكمهم عليه بالاعدام فأعدم في عام ١٩٤٣ بعد أن قضى سنة في السجن وبعض السنة، كانت كلها سلسلة متصلة من التعذيب والتنكيل دون أن يكل أو تخور له عزيمة.

وقد كتب فوتشيك وهو في سجنه كتابه المعنون: «تحت حبال المشانق»، كتبه على قصاصات من الورق متفرقة، بمعرفة حارس تشيكي في سجن الغستابو بانكراتس ـ براغ (حيث كان فوتشيك مسجوناً)، وجمعتها بعد الحرب، امرأة فوتشيك. التي كانت هي ايضاً معتقلة في مكان ما، ونجت مع من نجوا من الذين لم يتسن الوقت الكافي لابادتهم.

وكان فوتشيك على يقين من أنه لن يعيش حتى يتم هذه السلسلة من الرسائل، ولكنه كان على ثقة بالنصر قوية بحيث كان مطمئناً الى أن «نهاية كتابه السعيدة» سيكتبها الملايين من مواطنيه ومن المناهضين للفاشية في البلاد الاخرى.

في أقبية الغستابو

ـــ اربطوه وزيدوه ضربا.

ـــ تكلم، تكلم، قل! ما اسمك؟ تكلم قل! بمن كنت تتصل، وما هي عناوينهم؟ وأين المطبعة ومن يطبع الجريدة؟

لم يكن فوتشيك يسمع من الغستابو الا هذه الكلمات، وتنهال بعدها الضربات الثقال عليه. لقد أخذ يعدها أول الامر: واحدة. اثنتان. ثلاث ... ولكنه عاد فعدل عن ذلك قائلا لنفسه: «لا يوجد أي مكان يضم هذا الاحصاءات».

مضت ساعتان لم يكن يسمع فيهما غير وقع العصي على جسمه، ثم يدخل ضابط في الغستابو ويقول: «كل شيء على ما يرام يا حضرة المحرر المسؤول؟...»

فيبت فوتشيك ويظل صامتاً ولكنه يفكر: من أخبرهم بذلك؟ وتذهب ظنونه الى أهل البيت الذي اعتقل فيه: آل جيلينيك، ... آل فريد؟.. ولكن هؤلاء لا يعرفون اسمي. ويتابع الضابط: ـ الا ترى أننا نعرف كل شيء؟ تكلم اذن وكن متعقلا! «وفي قاموسهم الخاص أن تكون متعقلا يعني أن تكون خائناً. ولكني لن اكون متعقلا!» «ان الالم الوحيد الذي اشعر به يتمركز في شفتي النافرتين لكثرة عض اسناني عليهما»

ـــ اخلعوا حذاءه ...

لقد خـدر كل جسمه من شدة الضرب، فليس يشعر بألم، وان كان يسمع وقع الضربات.

لكن قدميه لم تضربا بعد، لذلك أحس بالضربات الاولى «كأنها توجه مباشرة الى دماغه» «تكلم! تكلم!»

لقد أصبح في شبه غيبوبة. لكنه يلزم الصمت أبدا.

«اني أحاول أن أعد بلساني الاسنان التي اقتلعتها ضرباتهم، اثنا عشر، خمسة عشر، سبعة عشر؟ لا ... ان هذا عدد الضباط الذين يحاولون استنطاقي وقد ظهرت على بعضهم دلائل التعب. الا ان الموت لم يأت بعد ...

«الساعة الثالثة. الفجر يتحرك الآن في الارياف. المزارعون يتوجهون الى المدينة بخضارهم وفاكهتهم، ويبدأ الكناسون عملهم. هل يقدر لي أن ارى فجر يوم آخر؟

«ها هم يحضرون زوجتي. هل تعرفينه؟» «ابتعت الدم حالا من حول شفتي حتى لا تراه ... ولكن يا للخوف! ان الدم ينزف من كل بوصة من جسمي حتى رؤوس أصابعي.

ـــ «هل تعرفينه؟»

ـــ «لا. لا اعرفه»

«قالت دون ان تبدو منها حتى ولا اشارة بعينيها ثم عن رعبها. يا لها من جوهرة؛ لقد حفظت عهدنا بأن لا تتعرف الي بالرغم من ان هذا لم يبق ضرورياً الآن، ومن الذي اعطاهم اسمي؟.

وعـاد فوتشيك يستعرض اسماء الاشخاص الذين اتصل بهم، واصحاب البيوت التي زارها. ولم يخطر بباله قط رفيقه الدائم ومعاونه ميريك.

«مضت الساعات: الخامسة. السادسة السابعة، العاشرة، قبل الظهر، الآن يجتمع العمال على مقاعدهم للغداء.

«أمل امي تفكر بي في هذه اللحظة. ترى، هل علم الرفاق باعتقالي واتخذوا الحيطة لانفسهم. وماذا سيحدث لو تكلمت؟ لا ... لن اتكلم ايها الرفاق، وتستطيعون الاعتماد علي حقاً!

«الضربات تشتد، وتشتد، ثم ينضحون وجهي بالماء لكي اصحو من اغمائي. ويزداد الكلام حتى يصبح صراخاً شديدا.

«تكلم! قل! تكلم!»

«الساعة الخامسة بعد الظهر. لقد نال منهم الاعياء. فالضربات تقل، وتطول المسافة بينها.

ومن بعيد سمعت صوتاً: «يكفيه ما ناله حتى الآن».

«وبعد فترة جلست الى مائدة، فاذا بها تبتعد عني ثم تعود الي. وهـذا احدهم يعطيني بعض الماء. وآخر يقدم لي لفافة من التبغ لم استطع وضعها في فمي.

«ثم اخرجت نصف محمول الى السيارة، بينما ظل احدهم مشهرا مسدسه في وجهي وقد اضحكني ذلك وأثار استغرابي. فما الحاجة اليه الآن وانا في هذه الحالة؟

ومررنا بسيارة مغطاة بالزهور البيض ان هذا حلم، بل حلم محموم بلا ريب، بل هو الاحتضار، لا، بل الموت بعينه!

«ولكن الموت صعب، وهذا هين بل ليس بالهين ولا بالصعب!

«هل مت يا ترى؟ لا. لم امت بعد. ها انا ذا اقف مرة اخرى، ودون مساعدة امام وجهي جدار قذر اصفر ملطخ ... بماذا؟ بالدم ... هكذا يظهر ... نعم هو دم ... ها انا ارفع يدي، وامسح باصبعي لطخة منه، واذا به دم لزج .. هو دمي..

«وضربني احدهم من خلف وامرني ان ارفع يدي، واجلس القرفصاء، ثم اقف ثم اجلس، ثم وقعت ولم استطع النهوض.» «اخذ رجل الغستابو يركلني بحذائه لاقف. ولكن بدون جدوى. وهـذا آخر يغسل وجهي.» وها انا ذا اجلس الى طاولة. واذا بامراة تقدم لي بعض الدواء وتسأل عن اشد المواطن ألماً في جسمي.

«اعتقد ان كل الالم متمركز في قلبي»

ـــ «ليس لك قلب»، قال احد رجال الغستابو.

ـــ «بلى، ان عندي قلباً» قلت هذا وانا فخور بأنه ما زال لدي من القوة ما استطيع به الدفاع عن قلبي.

«ثم توارى كل شيء. الرجـل والجدار والمراة والدواء.

«وبعد ان عاد الي صوابي، فتح باب الزنزانة وقذف بي الى الداخل، رجل ضخم الجثة، ونزع ما بقي من قميصي، والقاني على كومة من القش، اخذ يتلمس اجزاء جسمي المتورمة وطلب احضار العصائب.

ثم قال يخاطب رجلا آخر، مشيرا الى جسمي: «انظر هـذا العمل المتقن الذي يقومون به».

«وبلغ اذني صوت من مسافة يقول بشيء من الرقة»: «انه لن يعيش حتى الصباح».

...وتشيك

...«المشانق» ...

النضال للحرية

الاحتضار

ومرت ساعات وايام وفوتشيك ملقى في الزنزانة بين الموت والحياة ، حتى ان السجينين الآخرين اللذين يقاسمانه الزنزانة ظنا مرارا انه فارق الحياة ، فأخذا يجتزانه بترانيم الموت . ولكن في فقرات متقطعة كان وعيه يعود اليه ، بضع لحظات ، فيفتح عينيه كمن يصحو من حلم عميق ، ويسمع بأذنيه انغام جنازته ، ويرى الرجلين يطوفان حوله ، دون ان يستطيع حراكا او كلاماً .

ثم يعاوده الشعور بالالم ، فيوقن انه لا يزال حياً . « فهذا الالم – توام الحياة – لا يفارقني لحظة واحدة . ولا تخف حدته »

ويعود رجال الفستابو الى محاولة استنطاقه . ولكنه لا يستطيع ان يلبس ثيابه فيأمر رجل الفستابو رفيقيه في الزنزانة بوضع ثيابه عليه . ولا يستطيع الوقوف والسير ، فيضعونه على محمل ، ويصعدون به الى مكتب الشرطة في السجن . ويرتفع صوت غاضب سائلا :

— « هل تعرفها » ؟

« رفعت ذقني بيدي ، واذا بي ارى شابة عريضة الوجه . منتصبة بكبرياء وقد ارتفع راسها عالياً ، وانتصبت قامتها انتصابة النبل ، لا انتصابة القحة وقد مالت بعينيها لتحييني .

— « لا . لا اعرفها . » هذا هو جوابه المقرر سلفاً عن كل سؤال .

« واتذكر اني رايتها مرة واحدة ، وها هي المرة الثانية . ولن يكون مع الاسف لقاء ثالث لاشد على يدها واهنئها على شجاعتها ونبل موقفها هذا . انها زوجة ارنيست لورنس وقد اعدموها في الايام الاولى من الحكم العرفي عام ١٩٤٢ .

وتتكرر هذه المقابلات بين فوتشيك وبين المعتقلين والمعتقلات . فيسأل الفستابو اذا كان يعرفهم او يعرفونه فيعتصم بالصمت ويعتصمون .

وفي كل مرة يناله نصيب من الضرب والرفس والتعذيب . ويعود الى زنزانته فاقد الوعي او في حالة الاعياء الشديد .

وفي زنزانته المظلمة العفنة الرطبة ، ما يفتأ فكره يذهب به الى شعبه ، ويتذكر السياسة القصيرة النظر الخاطئة التي اتبعها حكام تشيكوسلوفاكيا وساهمت في ايصال وطنه الى هذا المصير .

قد يكون سبب وجودي في هذه الزنزانة هو لاني توقعت العواقب السيئة التي ستجرها على الامة التشيكية السياسة الهدامة التي اتبعها السياسيون عندنا .

« ان امتي تصلب الآن امام عيني ، والحراس الالمان يتبخترون امام زنزانتي . وفي مكان آخر تتجمع الخيوط لتحوك خيانة جديدة . كم من القرون يحتاج الانسان ليفتح عينيه ويرى بوضوح؟ وكم من آلاف الزنزانات اقيمت في طريق التقدم ؟ وكم يجب ان تتعذب الانسانية ؟ يالله ! اليس لطريق التحرر نهاية ؟ غيران الانسان قد استيقظ اخيرا ... اجل لقد استيقظ !.. »

لم يكن فوتشيك يفكر في شيء ، الا في رفاقه ، وفي حزبه وشعبه ، وفي القضية العامة النبيلة التي نذر لها نفسه . حتى في اللحظة التي اعتقل فيها ، فكر ، ووضع مصلحة رفاقه . اي مصلحة حزبه ، فوق كل شيء . لما اقتحم رجال الفستابو البيت الذي كان فيه ، كان هو وراء الباب ، فلم يروه ، وكان بامكانه ان يطلق عليهم النار . ولكنه فكر بأن رجال الفستابو تسعة ، وبامكانهم ان يفرغوا مسدساتهم عند اول طلقة في رؤوس خمسة رفاق كانوا في البيت وهؤلاء الرفاق لا يهددهم خطر شديد . فقد يبقون في السجن ستة اشهر او سنة ، ثم يخرجون . « فاذا اطلقت الرصاص فلن انقذ احدا من التعذيب الا نفسي ، الا انى اضحي عندئذ بحياة خمسة رفاق »

« وليس سوى ميريك وانا ممن يعرفون اشياء كثيرة عن الحزب ، أما انا فلن اتكلم . اما ميريك !؟ فهو ايضاً لن يتكلم . لقد كان في اسبانيا وقاتل الى جانب الجمهوريين ضد فرانكو . وقد سجن مرارا ، فهو جريء وصلب » .

فسلم نفسه .

أول ايار

ويتذكر ، وهو في زنزانته يقاسي سكرات الموت ، ان الغد هو اول ايار . عيد العمال العالمي ، فينظر الى الرجلين اللذين كانا يشاركانه زنزانته واللذين كانا ، في تلك العشية ، عشية اول ايار ، يسيران مكتوفي الايدي في دائرة و « ينشدان باصوات حزينة غير متناسقة » انشودة كئيبة قاتمة . ويقول لهما :

كفا كما ياهذان!... قد تكون الاغنية جميلة ولكنها لا تلائم هذا المساء . فغدا هو اول ايار ، اجمل وامرح عيد للانسانية .»

ويأبى الا ان يحتفل هو ورفاقه ، بأول ايار ، في السجن ، ولكن كيف ؟ وهل من الممكن ان ينجح ذلك ، في قلب السجن ، في قلب حصن من حصون النازية ؟

اسمع اليه يصف كيف كان ذلك :

« في الجزء الاسفل امام نافذتي ركضت النساء السجينات ، استعدادا للتمارين اليومية . فصعدت على طاولة لاراقبهن علهن ينظرن الي . وقد رايتني فعلا ورفعن قبضاتهن المقفلة بالتحية مرة تلو الاخرى . لقد دبت الحياة في الساحة الشاغرة اكثر من اي يوم مضى . انه اول ايار .

« وبعدها جاء دورنا . وكان علي ان اقود الفريق .

« انه الاول من ايار ايها الشباب . فدعونا نبدا بشيء جديد غير آبهين لرؤية الحارس او عدمها .

« التمرين الاول – الضرب بالمطرقة : واحد اثنان ، واحد ، اثنان . يتلوه حصاد القمح . المطرقة والمنجل . قد بدا الرجال يفهمون مغزى التمرين ، فمرت على شفاههم ابتسامة عريضة ، وتابعوا التمرين بنشاط وحيوية .

« هذه هي مظاهرتنا بمناسبة اول ايار ، ايها الرفاق . وهذه الاشارات التي مثلناها هي قسمنا في الاول من ايار على ان نقف بثبات وصلابة ، حتى نحن الذين نسير الى الموت . وعدنا الى الزنزانات في الساعة التاسعة . وفي هذا الوقت تعلن ساعة الكرملين الضخمة دقاتها العشر ، وعندها يبدا الاستعراض بعبور الساحة الحمراء . تعال ايها الرفيق . انهم ينشدون ، هناك نشيد الاممية . ان نشيد الاممية يصدح في جميع ارجاء العالم اليوم . فدعه يصدح في زنزانتنا ايضاً . وهكذا انشدنا نشيد الاممية واتبعناه بأغان ثورية اخرى . اننا لا نريد ان نكون وحيدين — ونحن لسنا وحيدين . اننا ننتمي الى اولئك الذين يتجرأون على الانتشار بشجاعة وحرية — في جميع العالم . وهم في المعركة ونحن ايضاً . »

« أجل ! لقد كانت الاشياء بسيطة جدا هذا اليوم ، فليست هناك أمواج غاضبة من المتظاهرين في ساحات براغ ، كما في السنين الماضيات ، ولا ذاك البحر الزاخر بالملايين في الساحة الحمراء في موسكو . بل لم يكن هناك لا الوف ولا مئات بل قبضة من الرفاق . ومع ذلك فأنت تشعر (في السجن) بأن هذا الاحتفال لا يقل أهمية . فهو استعراض لقوى جديدة تجتاز أعنف مراحل النضال ، خلال نار مستعرة ، فلا تحترق وتحول رمادا ، بل تخرج من النار كالفولاذ الصلب ! هو استعراض في ساحة المعركة ونحن في ثياب النضال .

« وإني أشك أن يكون في استطاعة من لم يمروا في أتون المعركة أن يفهموا هذا الحدث الكبير . »

« الحقيقة هي أن قوة جديدة وصلابة جديدة تخلقان هنا !

« ولكن لم تكن هذه هي الخاتمة — فالخادمة في سجن النساء أخذت تسير في الساحة الفسيحة وهي ترسل نشيد « الجيش الاحمر » صفيرا عالياً ! وأتبعته بنشيد الانصار وأغان سوفياتية أخرى .

« والرجل في لباس البوليس التشيكي الذي أحضر لي القلم والورق واقف أمام زنزانتي ليتنبهني أثناء كتابتي عند مفاجأة متطفل . والحارس التشيكي الاخر الذي ينقل الاوراق ليخبئها حتى يحين الوقت المناسب لطبعها ، سيدفع رأسه ثمناً لقطعة من الورق ، في سبيل بناء جسر من الورق بين اليوم ، وخلف القضبان الحديدية ، وبين الغد وفي عهد الحرية .

« انهم جميعاً يخوضون نفس المعركة ويخوضونها بشجاعة ، حيثما وجدوا وبأي سلاح استطاعوا الوصول اليه . ويفعلون ذلك ببساطة وبدون مباهاة بحيث لا تستطيع أن تعلم بأنها معركة حتى الموت » .

الثقة بالمستقبل

كان فوتشيك مؤمناً . من اعماق قلبه ! بانتصار الحرية . ولم يكن هذا الايمان مبنياً على اوهام فالتفاؤل « لا يمكن ولا يجب أن يعيش على الأكاذيب ، بل على الحقيقة التي ترى بوضوح نهاية الحرب على الوجه الوحيد الذي يمكن ان تنتهي اليه » .

كان يصرخ به مستجوبه النازي :

— « الا تفهم ؟ ان هذه هي النهاية . لقد خسرت لعبتك ؟

فيجيبه :

— اني أنا وحدي سأخسر .

— « أما زلت تعتقد بانتصار الشيوعية ؟

— « بكل تأكيد . وهل تكون النتيجة غير هذه ؟ »

لقد كان ايمانه قوياً بامكانية شعبه وحزبه وبقواه المبدعة وبحيويته التي لا يمكن تخمد . « إن الحزب لا يمكن القضاء عليه . وقد ظهر ذلك بعد كل ضربة وجهت اليه . فقد حل محل كل عامل القي القبض عليه — ولو كان يبدو أنه لا يعوض — اثنان أو ثلاثة » .

ولم يكن ينقطع عن الغناء في زنزانته ، منذ ان عاد اليه وعيه وأيقن انه لم يمت بعد .

« ان زنزانة ٢٦٧ (زنزانة فوتشيك وزميله الذي كان يدعوه بالوالد بتشيك) تغني دائما . لقد انشدت طيلة حياتي ولا ارى أي سبب يمنعني في آخرها من الانقطاع عن الانشاد .

« لا حياة بدون اغنية ، كما لا حياة بدون شمس . بل إننا بحاجة مضاعفة الى الغناء ، لأن الشمس لا تجد منفذا الينا . فزنزانتنا تواجه الشمال . وتمر أشعة الشمس بحاذية قضبان النافذة تكاد لا تمسها الا في أشهر الصيف عند الغروب ولمدة دقائق معدودات

« الشمس !! الا ما أكرمها عندما ترسل أشعتها . وما اكثر المعجزات التي تقوم بها امام أعين البشر . بيد أن القليل منهم من يعيش في ضوء الشمس الباهر . لا شك أنها ستضيء ثانية وستضيء لنا جميعاً يوما ما . وعندما نتمكن جميعاً من الحياة في النور . ولكن بودي لو أعرف شيئاً قليل الاهمية نسبياً : أيضيء لنا النور ، نحن الاثنين ، مرة اخرى » .

(البقية على الصفحة الرابعة)

الخائن يخسر كل شيء

ولكن هذا الشيء — القليل الاهمية بالنسبة اليه — لم يتحقق مع الاسف . فقد جبن ميريك — هذا المجرب الموثوق به — ولم يتمالك اعصابه أمام الفستابو، فأدلى بجميع ما يعرف ، فكانت النتيجة أن القى الالمان القبض على مناضلين سريين كثيرين وزجوا بهم في السجون والمعتقلات. ثم انه عرف الألمان بشخصية فوتشيك الحقيقية وبوظيفته المهمة في الحزب — وكانوا يجهلون ذلك جهلا تاماً — فانهالوا على فوتشيك يريدون أن ينتزعوا منه معلوماته . ولكنهم ارتطموا بإرادة حديدية لا تقهر .

لقد صور فوتشيك بكلمتين وجه الخائن

« ان منظر من خانته شجاعته وضميره أسوأ بكثير من منظر ذلك الذي تكسر جسمه وأصبح محطما عاجزا عن الوقوف . »

«ان اولئك الذين يضعفون يستحقون الشفقة حقاً. فما هي تلك الحياة التي سيحيونها والتي استحقت ثمناً لها حياة رفيق مناضل »

ويصف فوتشيك الذين يذهبون الى غرفة الاستنطاق ، وكيف يعودون منها :

« فهذا شخص يدخل بعينين نافذتين لامعتين ، الا أنه يعودون دون أن يجرأ على مقابلة نظراتك . لقد ضعف وجبن في غرفة الاستنطاق. لحظة واحدة من التردد والخوف، لحظة من تسلط الرغبة في انقاذ نفسه على عقله ، وهذا يعني انهم سيحضرون غـــدا فرائس جديدة. ستبدأ حياة مليئة بالتعذيب والرعب لاناس خانهم ذلك الرفيق وقدم احاهم للعدو ».

ومن أجل انقاذ هذه الفرائس الجديدة، من اجل الابقاء على الرفاق المناضلين «مهما كانوا قليلي الأهمية » ، لم ينطق فوتشيك بكلمة

« انا لم اضيع حياتي عبثاً . ولن أدنس الجزء الأخير منها ». بيد أن ميريك دنس هذا الجزء الأخير من حياته . ولم يكن عجب فوتشيك من هذا الضعف والتخاذل ، بيده بميريك ، بأقل من اشمئزازه واستصغاره له

« انه رجل لم يخش الرصاص عندما حارب في اسبانيا ، ولم يطأطيء راسه ولم يضعف عندما عرض لحياة وحشية قاسية في معتقل فرنسا . ولكنه الان ارتجف وتخاذل أمام العصا التي حملها رجل الفستابو ، فخانته جبناً لينقذ نفسه ، ياله من ايمان سطحي وشجاعة زائفة ، تلك التي تنهار وتضمحل تحاشياً لضربات معدودة . لقد كان صلباً عندما وجد بين جماعته محاطاً برفاق يشاركونه آراءه ، كان شجاعاً عندما فكر بهم. ولكنه عندما عزل نفسه عنهم واخذ يفكر بنفسه فقط، تخاذل وضعف ايمانه وتلاشت شجاعته تماما ، وخسر كل شيء ، ومن أجل ان ينقذ جلده ضحى برفاقه وافسح الطريق أمام الجبن والخيانة . « لقد فاته ان الموت افضل بكثير من تفسير الشيفرة الموجودة في غرفته » .

« ان الجبان لا يخسر حياته فقط ، فهو قد خان جيشاً نبيلا هائلا وسلمه الى اسفل عدو » .

بطولات صامتة

ولكن هذا الجيش النبيل الهائل الذي سلمه هذا الخائن الى الفستابو ، كان جميعه وبدون استثناء ، حافظاً للعهد الذي قطعه على نفسه يوم ان انخرط في غمرة النضال في سبيل الحرية. ويذكر لنا فوتشيك في كتابه امثلة كثيرة على البطولات التي اظهرها افراد هذا الجيش النبيل في سجون الفستابو وغرف استنطاقهم .

وفي رأس هذا الجيش تأتي غوستينا زوجة فوتشيك الودودة المخلصة . اعتقلت فور اعتقال زوجها ثم جاء وابها بعد اسابيع من اعتقالها ، لكي تقلل من عناده وصلابته وقالوا لها : « انصحيه بأن يكون متعقلا . واذا كان لا يفكر بنفسه فاحمليه على التفكير بك على الاقل ، ان لديكما ساعة تقلبان فيها وجوه القضية . فاذا بقيتما على اصراركما فستعدمان رمياً بالرصاص الليلة هذه » .

فرنت اوغستينا الى زوجها بعينها . وقالت للفستابو بكل بساطة : « ايها الضابط ! ان هذا لا يخيفني . بل ان رغبتي الاخيرة والكبرى هي ان تعدموني عندما تعدمونه » .

وكأن حب فوتشيك لزوجته قد تعاظم اضعاف أضعاف ما كان ، لما شهد منها هذا الموقف الشجاع النبيل . فاسمع اليه يتحدث عنها اليها ، بحب وشغف واعجاب : « في هذه الليلة اقتادوا اوغستينا الحبيبة ، الى بولونيا ، الى الاشغال الشاقة ، الى المستنقعات الى التيفوس، الى الموت ! ان هذه المذكرات لن تنتهي ، اذ لم يبق امامي سوى ايام معدودات من العمر ، وسأحاول ان اكتب ما استطعت .

غير اني لن اكتب اليوم ، فقلبي وعقلي كلاهما مليئان بغوستينا ، تلك الانسانة النبيلة ، الحبيبة ، والصديقة الوفية .

للساء يتلو المساء وانا اغني لها اغنيتها الحبيبة اليها ، اغني لها اغاني اعشاب المروج الخضراء ، هامساً لها اقاصيص معارك الانصار عن فتاة كوزاكية ناضلت في سبيل الحرية الى جانب زوجها ، اروي لها حكاية شجاعتها وكيف لم يستطع احد نفيها من ساحة الحرب:

يا رفيقتي الباسلة ، اية قوة جبارة تكن في هذا الكائن الصغير الدقيقة تقاطيعه، اي حنان يتدفق من تينك العينين الطفلتين؟

ان النضال المتواصل والفراق المتكرر قد جعلا منا محبين خالدين عاشا مئات المرات خلال المرات المشتعلة ، لحظات مغازلتنا الاولى واتحادنا الاول .

انه نبض واحد ذلك الذي يختلج به قلبانا ، ونفس واحد ينبعث من صدرينا في لحظات السعادة ، وساعات القلق .

لقد عملنا معاً سنوات عديدة، وتعاونا كما يعين الصديق صديقه . وخلال سنوات طويلة خلت وقفنا جنباً الى جنب في نضال جعل الحياة غنية شيقة . هذه هي غوستينا : حب عظيم وشجاعة لا تقهر .

في وسعهم ان يأخذوا حياتنا ، اليس كذلك يا غوستينا ، ولكنهم لن يستطيعوا ان يمسوا حبنا وشرفنا !

انت تعلمين وانا اعلم اننا لن نلتقي بعد اليوم ، ولكني رغم هذا ، اسمع صوتك عن بعد يقول: الوداع ياحبيبي والى اللقاء.. الى اللقاء ثانية يا غوستينا » .

وهناك «آل جيلانيك، هذان الزوجان البسيطان ، اللذان لا يوحيان اليك بمظاهر البطولة في الاوقات العادية ، ولكنهما عند اعتقالهما وقفا جنباً الى جنب وقد ارتفعت ايديهما وشحبت وجوههما . أما عينا الزوجة فقد باحتا بالرعب عندما رأت كيف حطم الفستابو بيتها النموذجي المحبوب في خمس دقائق، وعند ذلك التفتت الى زوجها سائلة: «وماذا سيجري الآن يا جو ؟» فاجاب بهدوء ودون جهد او تأثر : اننا ذاهبان الى الموت يا ماري » . فلم تصرخ ولم تجفل . وبحركة أنيقة وديعة انزلت يدها اليمنى وضغطت بها على يده امام افواه المسدسات . فكان ثمن هذه الحركة ضربات متوالية على الوجه . فمسحت خدها ونظرت الى القزاة من اسفل الى اعلى وقالت بهزء وسخرية: « يا لكم من ظرفاء! يا لكم من ظرفاء ووحوش!» .

« وبعد ساعتين حملوها من غرفة الاستنطاق فاقدة الوعي، ولكنهم لم يستطيعوا الحصول منها على شيء . ولم يظهر في جبينها اثر الدمع مع طول مدة بقائها في مركز الفستابو . « لقد كتبت في آخر رسالة منها تقول :

«ايها القائد : اخبرهم في الخارج ان لا يحزنوا من اجلي ، ويجب ان لا يرتاع احد لهذا المصير الذي القيه . لقد قمت بواجبي كاملة مناضلة، وسأموت كذلك ايضاً » .

أما ليدا الفتاة الصغيرة البريئة ، التي شبت على يدي فوتشيك ، فقد اعتقلت بعده بشهر ، اذ ذكرها ميريك في اعترافاته امام الفستابو ، رغم انها كانت خطيبته وكانت تحبه حباً شديدا .

وكانت تعرف اشياء كثيرة ولكنها لم تبح بكلمة واحدة .

«رشحت ليدا لدخول الحزب في شباط ١٩٤٢ . وفي تلك الليلة المكفهرة الثلجاء عدنا معاً الى البيت . كانت صامتة على غير عادتها، في كثرة الظلام . ولما بلغنا الحقل القريب من البيت، وقفت فجأة ، وفي السكون السائد حيث كانت تسمع اصوات ذرات الثلج المتساقط ، قالت بهدوء غريب : « اني اعلم ان هذا هو اهم يوم في عمري فانا الان لا اخص نفسي . واني اقطع عهدا بأن لا اخذلكم مهما كانت الظروف!» .

وقد جرت حوادث كثيرة بعد ذلك ولم تخذلنا قط .

« وبواسطتها حافظنا على اتصالنا بالقيادة العليا . وكلما كان يحدث خلل في اتصالنا بالقيادة ، اوينكشف مكاننا السري، كانت ليدا تتسلل بسرعة وتضع كل شيء في نصابه . وكانت تقوم بالمهمات الكبرى ، بنفس الروح التي كانت تقوم بها في المهمات الصغرى ، روح المرح والغبطة الا انها كانت شديدة الشعور بالمسؤولية .

« تابعت ليدا العمل في السجن — اذ ان واجبها نحو حزبها لم يتغير — واخذت تقوم بعملها بسرعة ودقة واتقان .

فكانت ليدا اذا وجدت من الضروري تصحيح بعض الامور لانقاذ اشخاص في الخارج — تتقبل المهمة بتصميم بريء . ولقد اصبحت قائدة يعتمد عليها في القسم النسائي من السجن . وانقذت اشخاصاً كثيرين برسائلها التي استطاعت ايصالها الى اصحابها . ولكن بعد مضي سنة على هذا الحال اكتشفت احدى «الرسائل» وكانت هذه نهاية «وظيفتها» .

« ثم هناك اخيرا آل فيسوشيل . اما الزوج فكسيح ، تهشمت ركبته في الحرب العالمية الاولى ، واما الزوجة فضعيفة الجسم وتكبره بثماني سنوات.

« اعتقل الزوج بعد اعتقال فوتشيك مباشرة . ولقد خشي فوتشيك ان يتكلم لأنه يعرف الشيء الكثير. ولكنه لم يتكلم ولما اجتمع الزوج وفوتشيك في اليوم الثالث من الاعتقال في غرفة الانتظار ، قبل الاستنطاق ، نظر فوتشيك اليه بقلق وتشجيع فاجابه بطريقته الريفية الصريحة .

« عندما ارفض الكلام فلن يستطيعوا ان يحصلوا مني على شيء مهما ازلوا من الضرب على ظهري » .

« ثم اعتقلت الزوجة ، هي الاخرى، بعد مضي شهر .

«وازعج الكثيرون منا في السجن لأنها احد الذين كنا نتصل بهم في الخارج «ولكنها لم تبح بكلمة .

« لم يضربها البوليس ، فقد بلغ بها المرض مبلغاً جعل من المستحيل اساءة معاملتها وابقاءها على قيد الحياة . الا انهم عذبوها بطريقة اخرى — عذبوها بالتخيلات . اذ انهم كانوا قد نقلوا زوجها قبل اعتقالها الى الى معسكر الاعتقال في بولندا للعمل في الاشغال الشاقة . فاقتادوها الى حيث زوجها وقالوا لها : « انظري هذه الحياة الشاقة التي تصعب على الرجل السليم المعافى . وزوجك كسيح لا يستطيع تحمل هذا. وسيقع ميتاً دون ان تريه مرة ثانية. واذا ما مات فلن تستطيعي الحصول على زوج في سنك هذه ، ولذا كوني متعقلة واخبرينا بما تعلميه ، وسنعيده اليك حالا».

فكانت تقول في نفسها: «سيموت حبيبي جوزيف ! ومن يدري اية ميتة سيموت ؟ ولقد قتلوا اخي من قبل ، وسيقتلون زوجي الان ، وسأبقى وحيدة ، وحيدة كل الوحدة حتى الموت. وقد يعيدونه لقاء ثمن . ولكن لا ! لن اكون من يدفع هذا الثمن . ولن يكون هو ذاته اذا عاد الي بهذه الوسيلة» .

هذه هي الاعمال التي وضعت حجر الاساس في بناء الدولة التشيكوسلوفاكية الحديثة ، وصفها لنا فوتشيك في كتابه «مذكرات المشانق» وصفاً شائقاً ينبعث منه الحماس والايمان في الوقت الذي كان هو فيه ينتظر الموت بين ساعة واخرى .

الحب والثقة

لقد جمع فوتشيك افضل مزايا المناضل الثوري الجدير بالانتماء الى قافلة المحررين : الايثار على النفس ، وانكار الذات والثقة بالشعب والايمان بانتصار قوى النور والتقدم على قوى الظلام والتأخر .

وقد احب فوتشيك : احب وطنه وشعبه وحزبه ورفاقه واعوانه في النضال واحب المناضلين في سبيل الحرية تحت كل سماء . واحب الاتحاد السوفياتي طليعة قوى الحرية ووطن الاشتراكية حيث تحقق المثل الأعلى الذي سيعم الدنيا . ووثق بوطن الاشتراكية ثقة لا حد لها . ومن هذا الحب وهذه الثقة استمد كل قوته وثباته وصلابته وبطولته .

ففي اصعب الساعات التي مرت به في اقبية التعذيب بين ايدي الجلادين :

... «في هذه الساعات نفسها الان ، يخوض الملايين من البشر المعركة الاخيرة في سبيل تحرير الانسان ويستشهد الألوف في هذا النضال . وانا احد الشهداء . وما أجملها قسمة ان اكون احد جنود المعركة الاخيرة

(عن مجلة الطريق)